المـــــرأة بـضـاعـة وزخـرفـة

سميرة المانع

سوزان سونتاغ

ارانداهاتي روي

شاهدنا على شاشة التلفزيون الصغيرة ما حدث بالولايات المتحدة الأميركية يوم ١١ سبتمبر/ ايلول ٢٠١١ ، حينما عُدّ الضحايا دون الرجوع إلى لونهم أو جنسهم أو دينهم . لقد تساووا جميعاً ، كبشر لا غير ، فالموت ، خلاف الحياة ، يجعل البشر متشابهين متساوين .

هذا برهان ساطع صغير مؤثر يثبت أننا، كلنا، نواجه المصير الواحد ونتقاسم المعاناة نفسها. هذه الكارثة الرهيبة جعلتنا نفكر، قبل كل شيء، بأن ما نريده الآن، هو السلامة. السلامة لها الأولوية في مطاليب البشر العاديين، لا يشك أحد في ذلك، لا نقبل بالموت اللهم إلاّ إذا حصل لأسباب طبيعية.

لو قلنا إن عالمنا اليوم هو عالم الرجل، لن نضيف شيئاً جديداً. فهو ، كما نلاحظ، يخترع اللعبة وينظم قوانينها والمرأة تطيعه. الآن نشهد الوضع القائم وما سببه صنيعه. يستطيع المرء القول، ومن دون أدنى شماتة، إنه، والمرأة خلفه، يحصدان ما زرعه هو بنفسه في العالم كله. النساء متأثرات بشكل مضاعف لما حصل، خصوصاً أنهن يدفعن عقوبة أمور لم يقمن بارتكابها، لم يساهمن في صناعة القرار، وإن وجدت أعداد منهن أثناء إصدار القرارات، فالغالب أنهن للزخرفة فقط. وجهة نظر النساء تُهمل، والأسوأ من ذلك يُسخر منها بعض الأحيان لدرجة الاستهزاء والضحك عليها. فلسفة معظم الرجال في هذه الحياة باقية على حالها دوماً، ومنذ زمن سحيق .هي المنافسة سواءً عن طريق الحروب، المؤامرات، الأسلحة الفتاكة، الأرباح الطائلة، والمزيد من الطمع في المناصب.

لا مفرّ، في تركيبة نظام كهذا، من انفجار الوضع بالعنف والصراعات. هناك من يحتج ويناقش ذاكراً أن نساءً حكمن في وقت من الأوقات، هنا وهناك ، فلماذا لم يغيرن شيئاً في العالم؟! هذا صحيح ، لكن لسوء الحظ ، معظم هؤلاء النسوة الحاكمات حاولن أن يقلدن عادات الرجال،أصبحن رجالاً أكثر من الرجال أنفسهم متباريات مع الرجل حتى في التضييق على بنات جنسهن من أجل ارضائه وإبقائهن في مناصبهن. هذا لا يعني أن الأخريات راضيات مثلهن. الأخريات طالما تقن إلى إيقاف التفرقة بين الجنسين والحروب، إذا سمح لهن. بل تقن إلى تغيير مجرى الأحداث من أجل السلام. المثل الواضح قبل سنوات، حين تظاهرت الامهات الأربع الاسرائيليات إحتجاجاً على الحرب في جنوب لبنان. إنهن ، في الأقل، استطعن بعملهن آنذاك، تهيئة الجو للإسراع بانسحاب الجيش الإسرائيلي. كانت مبادرة جريئة من قبل النساء. نتمنى المزيد، بدلاً من أن تُغسل أدمغتهن عن طريق الرجال، من أجل أن يقتل الواحد الآخر طيلة الوقت. القتل ليس من طبيعة المرأة . ليس من إختصاصاتهن.

رغم كل شيء ، أنني لست ضد الرجال. ما أودّ قوله ، هو أن بعضهم ، وبإمكاني القول، مع الأسف الشديد، عدد كبير منهم ، يشبهون أحد الصحفيين العرب، عندما سُئل في مقابلة له عن وجهة نظره في قابلية المرأة فأجاب بصراحة، ومن دون تردد : "يجب أن يكون للمرأة وجه جميل، لا حاجة لها للكلام". تصريح كهذا من الممكن إهماله، لو جاء على لسان إنسان عادي. إلا أن المتكلم بهذا الرأي رئيس تحرير صحيفة معروفة.

على أية حال، علينا ألاّ نيأس، فهناك رجال آخرون كرسوا معظم حياتهم للدفاع عن قضية المرأة بانصاف ولاعطائها حقوقها. كانوا عادلين مضحين. عملوا معها سوية من أجل تحقيق بعض ما تطمح إليه وعانوا جراء ذلك.

المعروف، انّ الكاتبة الروائية الانكليزية، المعروفة باسم رجالي هو جورج اليوت (١٨١٩- ١٨٨٨) اضطرّتْ إلى تغيير اسمها واستخدام اسم مستعار بدلا من اسمها الحقيقي ماري آن إيفانس وقدمت أروع الاعمال الروائية بالعالم. معظم النقاد يشهدون الآن كيف أن تأثيرها كان واضحا ومهماً في تطوير الرواية الإنكليزية بعدئذ ومنذ ذلك الحين.

اليوم، لحسن الحظ ، لا تحتاج الكاتبات، من أمثال سوزان سونتاك الاميركية أو أرنداتي روي الهندية وغيرهن، فعل ذلك. أما بالنسبة للنساء العربيات الكاتبات، بالمقارنة، فهن على الرغم من استعمال أسمائهن الحقيقية في كثير من الأحيان، لكن بعضهن، خلاف الرجل الاديب الذي قليلاً ما يكلف نفسه كي يظهر جذابا، ينهمكن باخفاء وجوههن وشخصياتهن الحقيقية ليحققن ما اراده الصحفي أعلاه. خصوصا بعد الخمسينات من القرن العشرين وسيادة ما يسمى بثقافة النقود والسوق في العالم العصري كله، ليصبح اهتمام معظم دور النشر في الدول العربية بالكتاب الذي سيحقق ارباحا مادية كأي بضاعة بيع وشراء أخرى . تارة بالاعلانات الكبيرة أو عن طريق السعي لتشويقه بمواضيع جنسية مكشوفة باستعمال الفاظ الجسد للإثارة، أو ادعاء الناشر بعدد النسخ المفبركة التي بيعت بعد صدوره مباشرة ليعيد طباعته مرة أخرى، مما يجلب فضول البعض للاطلاع عليه وهلمّ جرا. صار الاهتمام بالقشرة لكسب الزبائن كرجال أعمال دائميين أهم من اللب. غير عابئين، أو ربما يجهلون أن جيمس جويس طبع روايته الشهيرة بالعالم (يوليسيس) سنة ١٩٢٢ في مطبعة خاصة بباريس بـ٥٠٠ نسخة فقط، وكافكا طبع روايته (المسخ) بمطبعة صغيرة في سنة ١٩١٥، وبيع منها ١١ نسخة، يقال عشر منها اشتراها بنفسه.

على أية حال، قد تحتاج النساء، اليوم، الكاتبات منهن بالخصوص، التأثير على الرجل، طوعيا، كي يحترم عقلها قبل كل شيء. بهذا المنطق ومن تجربة جورج اليوت وغيرها من الكاتبات الحقيقيات ستكون حياتها دوما أخصب وهو مهتم بها وبأعمالها حتى في شيخوختها ومماتها . لولا أنه وبسبب هذه الصرعة للنقود والموضة صار الكثير من النساء العاملات في وسائل النشر والإعلام، منصاعات وراضيات لدورهن ولما خطط لهن أمثال ذاك الصحفي العربي الهمام. لا غرابة ، إذن ، أن ينهمك، بعضهن، بالبحث عن مواضيع ووجوه ملونة. تبدو أفكارهن وتعابيرهن فيها موجهة إلى شيء واحد فقط، هو تسلية الرجال. إنهن لا يعبأن بتقديم شيء خلاف ذلك. يهملن تفكيرهن الشخصي المفيد المستقل، بل يصبحن امهات يتبعن اقرب رجل لهن طوال حياتهن من دون تمحيص لافكاره . لا حاجة للقول، لهذا السبب، لا أعتقد سيحصل لهن أمل في أن يستشرن من قبل الرجال أو تطلب نصيحتهن من قبل اصحاب القرار حتى حين يجرون اولادهن للحروب والمنازعات ، أو يمنعن بنات جنسهن من التعليم في بعض البلدان ، كما حصل في إفغانستان في عهد طالبان ، حينما تمّ حرمانهن من التعليم عندما تبلغ البنت سن الثامنة من عمرها ، أو يطلب منهن إرتداء الحجاب من الرأس إلى القدم ، لتعيش المرأة باستمرار مكتفة، ملفلفة، تُزاح عن طريق الرجل عنوة وبصورة دائمة كما في القرون المظلمة ليتفرغوا للنزاعات في ما بينهم كرجال (إنها احدى الوسائل الناجحة، وجدت اليوم، لوأد البنات بطريقة حديثة). لكن النسوة يدّعين – متشبهات بمنطق الرجال ايضا لتحقيق مآربهم – أنهم يطبقون تعاليم الدين الإسلامي. هذا ، كما هو واضح، هراء. الإسلام في ازهى أوقاته الحضارية، في الاندلس مثلا، ظهرت فيه نساء اديبات عالمات، تفتخر بهن مجتمعاتهن وفسح المجال لهن كي يتساوين مع الرجل في الأهمية. يُذكر، على سبيل المثال، الاميرة ولادة بنت الخليفة المستكفي ولها مكانة مميزة بالشعر حينها، يؤم مجلسها المشهور بقرطبة الاعيان والادباء. امتازت بالجمال والادب وخفة الروح. كتب عنها الوزير الشاعر الاندلسي ابن زيدون القصيدة المشهورة عندنا حتى الان ، مطلعها :

اضحى التنائي بديلا عن تدانينا
وناب عن طيب لقيانا تجافينا

على أية حال ، الدول المتطورة اليوم لا تغرنا أو تشرفنا بنظرتها الحديثة للمرأة ، فثقافة السوق والبيع والشراء سائدة فيها على قدم وساق، منتشرة بشكل قبيح. هناك نساء في مجتمعات غربية ، أعطين الحرية كما نرى بشكل من الأشكال ، إلا أن الأمر كما في التقليد القديم ما زال ساريا للاسف. إنهن يُستعملن للاغراء بالعري الجسدي للاغواء، خصوصا الفتيات منهن ، كبضاعة لإثارة الرجال. نعم، ما حزرتمونه صحيح ، اقصد ما يُنشر في أمثال الصفحة الثالثة في صحيفة (الصن) الواسعة الإنتشار ببريطانيا. إنهم يستعملون جسد المرأة للحصول على الاموال في بيع الصحيفة التي فاقت مبيعاتها صحيفة التايمز والغارديان، كما ذكر في الاحصاء مؤخرا ، مستفيدين من المرأة هنا لإخفاء كآبة وتعاسة الجو القاتم بالعالم من حولهم الذي خلقوه هم بأنفسهم، مستعملين النساء من أجل التلطيف ،كزخرفة .

ما حصل في ١١ سبتمبر أثر علينا جميعاً ، شئنا أم أبينا . لم يعد العالم ، مكانا آمنا. مصير الجنس البشري على كف عفريت. تستدعي هذه الحالة مشاركة كل اعضائه بشكل متساو، دون النظر لنوع الجنس أو القومية أو الدين. المفروض أن لا نترك مصير العالم، بعد التجربة، بيد الرجال حسب.

× المداخلة التي أُلقيت بتنظيم من مركز دراسات المرأة بالشرق الأوسط – لندن.

أميرة العصور

محمود النمر

يا بهيّةً لا تنحني للتآمر
حين دعتك الآلهة للمجيء
كان الأجدى بك
ألاّ تغادري من عالم يغرقُ بالتمني
وتسرقي من نشوةِ الصوتِ الذي غطّى عموم الكون
الماسة السمراء
صوتك يعبرُ إلى الضفة الأخرى
يغرقُ في الضباب
يخفق بالريح
وأنت تحلقينَ فوق موجة مزدحمة بالضوء
تناولت قسطاً من الرجاءً نحو الروح
أغنيةُ العصور مازالت تنامُ عند المهد
لا تدخل القصور
أغنيةُ العصور في الروح التي تعصفُ مثل الريح
في ذلك السفحَ الذي يشربُ ماء النهر
كانت تودُ أن ترى رداءها يرقدُ في الفراش
إذ تسبقينَ قدرةَ النزوح للسماء
وتمنحين البوح.. لا التردد
أو ترغبين أن تسرقي أجنحةَ النوارس
في نشوة السرّ على السرير
يا ماسة سمراء
يا أغنيةَ العصور
كان مساءً عاثراً يلفهُ الطغيان
في صوتك الطاغي على المعمورة
كانت تراكيبُ النزوح للسماء
في موكب الملائكة
هنا العيونُ أمطرت لصوتك الأخير
تسمّرت عقاربُ الزمن
لو لم تمرّ خطوةٌ للغول
لما استتبت قبضة المؤامرة
قد كان هذا البوحُ أنثى هربت في رغبة الجسد
لا تقصدي الضبابَ.. في النشوة التي عادت بلا خطيئة
لا تهربي.. لا خوف يمضي وحدهُ في العتمة المزدحمة
القدرة المهربة/ الجسدُ الذاوي/ الرعشةُ المهذبة/ النشوةُ اللعوب/ الروحُ في السكون/ اللذةُ الكبرى/ الصوتُ لا تحملهُ الريحُ على هدوء/ تكسرت أجنحة الصوت على خطيئة/ لا شيء في منامك المنطفئ/ فلا تكوني رغبةً للصمت/ تناثرت أوراقك المبعثرة/ لا تكتبي للصوت.. للوداع / وأنت تهربين للغياب/ لا عزاء للعيون غير الدمع/ لا رثاءَ عند الصوت/ إلاّ الصوت/ لا ريحَ تعوي مرةً أخرى بلا خطيئة/ الكرستال.. طاحَ به الزلزالُ فانكسر/ الآلهة .. تسرقُ صوتاً آخرَ/ أقسى بلا اعتبار / وتترك الجسد/ للأبدية قدرة التكوين في الأزل / لكنها تخاف وأد الموت!

٢٠١٢/٢/١٧

متابعة

في المحتوى الثقافي

خضير فليح الزيدي

في عبارة مقتضبة ضمن الإهداء المميز لكتاب الدكتور علي الوردي – أسطورة الأدب الرفيع – إشارة ذكية حين يقول- غاب الذهب واستعاض عنه الناس بالحديد – مهديا كتابه الى الأدباء الذين يخاطبون بأدبهم أهل العصور الماضية على أن يهتموا قليلا بأهل هذا العصر الذي يعيشون فيه..

نقرأ من شفرة الإهداء تلك، إن لحظة موتنا بكل رعب صورته المركبة هي الأكثر إحياء من كل شريط حياتنا، فقطرة العربي الاحتفاء بموته تخليدا لذكرى حياته الشحيحة كما يشاع، أما جموع الأحياء فما عليهم سوى أن يرفلون بالمآسي الحياتية وما تاريخ الحياة سوى تمهيدا الى لحظة الحسم التاريخية..

كانت مقدمة الدكتور الوردي غاية مرعبة في أهميتها، رغما عن بساطة المعاني في ظاهرها.. إلا إنها خير فاتحة لتناول التباس حقب التنوير في الثقافة العراقية على مر عصورها، فهي سرعان ما تندثر وتضمحل، فمن الصعوبة بمكان السطوع من جديد ، فما الذي يعيق النهوض الحضاري ؟ ما الذي يعيق بلورة واستنهاض المفاهيم الثقافية الفاعلة في مجتمعات مثل مجتمعنا ؟ على ان الخوض في حقب التنوير العراقية تاريخيا تبدو معضلة حقيقية في فك الالتباس بين ماهو منتميا الى تلك الحقبة او تلك ، بين مفسدتها او نشاطها الفكري.. بين سباتها او نشاطها الفاعل المؤثر .. بين ماهو ثقافي صرف او نشاط اجتماعي محض ، إذا ما اعتبرنا الدكتور الوردي أحد أهم أركان حركة التنوير العراقية مؤرخا وفاعلا ومثيرا لاسئلة الثقافة الفاعلة..

بالإضافة الى الجيل الذي سبقه من ريادة الفكر التنويري الأول ورعيله متمثلا بالزهاوي ومعروف الرصافي وعوني بكر صدقي ومحمود احمد السيد وميخائيل يوسف تيسي وحسين الرحال وروفائيل بطي.. كنتاج حركة ثقافية مقاومة لما هو سائد في تاريخ العراق المعاصر.. هولاء وغيرهم قد عملوا على نسج خيوط المناهج التنويرية للثقافة العراقية في عشرينات وثلاثينات القرن المنصرم .. مع ملاحظة غاية في الأهمية بأن الحركة التنويرية التدشينية آنذاك لم تخلقها او تحتضنها مؤسسة ما، بل أسسّت لها حركة الأفراد كل على انفراد ..

جمعة الحلفي في الخميس الإبداعي

ســـــاعـــــة ويـــــذبـــــل الـــــزيـــــتـــــون

بغداد/ المدى

ضمن نشاطاته الإبداعية الأسبوعية ضيّف ملتقى الخميس الإبداعي الشاعر والإعلامي جمعة الحلفي للحديث عن تجربته عبر أربعة عقود من الزمن في مجال الشعر والإعلام والسياسة ،وقدم الجلسة الناقد السينمائي صباح محسن الذي قرأ مقطوعة شعرية للشاعر: أحزر جم جرح بالروح / واللـه جروحي لو تندل عددهن / جا كلت بوياي / بس انته صدك مجروح . هذا مقطع من قصيدة دهشة في مطلع السبعينات وهو اقرب إلى النبوءة وحدس استباقي لحجم الألم المقبل والمتوقع من جهة سلطة دموية أعلنت عن بطشها بكل ما تراه مضاداً لها.

تحدث الشاعر عن بداياته متنقلا عبر محطات كثيرة ومتعددة أذابت الجليد عن هذا الإرث الشعري والتأليفي والسياسي، ونوه بالقول: ليست السيرة كلاما مهما كانت بلاغة هذا الكلام، السيرة حياة مليئة بكل ما تحمل الحياة من أمانٍ وأحلام وصبوات وآمال نصل في نهايتها للأسفً الى طرق مسدودة ، قد تكون مسدودة شخصيا ولكنها مفتوحة أمام الناس وأمام الشعوب.

وأضاف الحلفي: ثلاثون عاما مرت كأنها صخرة على الصدر لا نستطيع أن نفتتها على الإطلاق ولا تزال تربض على صدورنا، وليس أمامنا سوى الأمل وهو العربة الوحيدة التي ندفع بها إلى الأمام .

كانت أربعة عقود من الحبو باتجاه الأمل وكما يبدو أحيانا ان الأمل لا يزال بعيدا عنا.

واسترجع الحلفي أيام السبعينيات التي قال عنها إنها تشكل لنا واحة عجيبة لما رأيناه من هذه الواحة ومساحة من الحرية وقد كنت واحدا من العشرات أو المئات الذين تفتحت عيونهم على الشعر والأدب والسياسة، وما كنا نفرق بين ذلك وتلك وكنا نعتقد أننا سنغير العالم بين ليلة وضحاها.

واستطرد قائلا: لقد كتبت الشعر في بداية السبعينيات، ونشرت أولى قصائدي في مجلة "المتفرج" وكانت فرحتي عظيمة.

لقد شهدت فترة السبعينيات انفتاحا كبيرا وواسعا وعميقا للثقافة العراقية عموما، وكانت الحياة في تلك الفترة مفعمة بالنشاطات الثقافية والإبداعية والسياسية، وكنا نقيم المهرجانات عن أحداث العالم مثل – تشيلي – وأتذكر أغنية – شيلي تمر بالليل – وكانت الثقافة تعج بحيويتها وكانت بغداد قبلة العواصم العربية على الصعيد الثقافي والفني والأدبي.

وأشار الحلفي إلى تجربة المنفى بما أتاحت للبعض من ثقافة.

وقدّم الإعلامي عبد المنعم الأعسم شهادة عن صديقه الحلفي الذي وصفه بالبخل لأنه يسرد ذكرياته الحافلة بالعطاء عبر خمسة وأربعين عاما في عمل دؤوب في ساحة مليئة بالأنغام والأسئلة والمشكلات والإخفاقات والانتصارات وكل ما يجمعنا بالحياة، وأضاف الأعسم لقد كان الحلفي مشاركا بسيطا إلى أبعد الحدود في التعامل مع هذه المشكلات حتى في المغامرات التي كنا نجترحها وقد أخفاها عني وعنكم.

وقال الأعسم : جمعة الحلفي كان حاضرا على الورق طوال أربعين عاما وعلى ألسنتنا جميعا نحن شركاؤه في التجربة وفي المنفى.

كما ساهم في المداخلات الشاعر ريسان الخزعلي مستذكرا صداقته مع الحلفي، مؤكدا أن الشعراء الشعبيين المثقفين تحديدا ذوو أهمية استقطبت الكثير من المواطنين تحت عنوان الشعر الشعبي.

وأضاف الخزعلي أن الحلفي كان يعمل في سبعينات القرن الماضي بجريدة "طريق الشعب" في صفحة الأربعاء التي تهتم بالشعر الشعبي، والتي كانت تضم أهم الشعراء وهم الراحل الكبير أبو كاطع والفقيد الشاعر أبو سرحان والشاعر عزيز السماوي والشاعر المحتفى به ، لاحظوا صفحة واحدة يديرها أربعة من العملاقة.

وأكد الشاعر عدنان الفضلي: إن هناك الكثير من الذين عادوا من المنفى ومنهم جمعة الحلفي الذي عندما يشتغل على مادة صحفية أو كتابية فإنه يبقى محافظا على منطقته أي بمنطقة الوسط ، فهو لم لم يشتغل وفق إيديولوجيا فقد كان يشتغل بنبض الشارع.

ثم قرأ الشاعر بعضا من قصائده التي نالت استحسان الحضور لما فيها من عذوبة وحساسية مرهفة ومعاناة الفقراء.

وفي نهاية الحفل وقّع الحلفي كتابه المعنون "خارج المتن" ثم قدّم جاسم الحلفي باقة ورد باسم الحزب الشيوعي العراقي، وباقة ورد باسم الملتقى قدمها الناقد الموسيقي ستار الناصر، وقدم الأمين العام ألفريد سمعان ساعة الجواهري تثميناً لجهود هذا المبدع .